

المشيخة الأندلسية في بجاية ودورها في تنشيط المعرفة التاريخية خلال القرن 7 هـ / م 13

أ. آسيا ساحلي
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

BIBLID [1133-8571] 21 (2014) 97-116

Resumen: “Maestros andalusíes en Bujía. Su papel en la activación del conocimiento histórico durante el siglo XIII”. Durante el siglo XIII, la ciudad de Bujía atrajo un considerable número de andalusíes ligados directamente al conocimiento de la historia, que se establecieron en la ciudad de forma provisional o permanente. Los que permanecieron en la ciudad centraron su actividad en la enseñanza de una serie de obras históricas y crónicas a sus estudiantes, que procedían de la propia ciudad de Bujía y de fuera de ella. Al examinar los datos históricos dispersos en los libros, programas e índices de estos maestros, además de los libros de biografías, descubrimos la importancia de la actividad historiográfica de los andalusíes en Bujía, y arrojamos luz sobre los alumnos más destacados y los títulos de las obras que se enseñaban. Esto influirá en el desarrollo de la conciencia historiográfica de Bujía en el siglo XIII, ligada a la escuela de historia andalusí representada por los maestros más destacados, como Ibn Sarrāğ al-İsbīlī, Ibn al-Abbār al-Balansī, y Abū 'Abdallāh Muḥammad ibn Ṣalīḥ al-Kinānī al-Šāṭibī

Palabras clave: Conocimiento histórico; Bujía; maestros andalusíes; escuela historiográfica; Marruecos central.

Abstract: “Andalusí Masters in Bejaia. Their role in activating historical knowledge during the 13th century”. Thought the 7th century of Al-hegira / the 13th Century of Birth, the city of Bejaia had attracted a considerable number of Andalusian elements linked directly to historical knowledge, who settled in the city either in a temporary or in permanent manner. The latter had stressed their activities on teaching a set of works on History and Chronicles for a group of students’ campus (episodes). If we look on the historical data spread in the folders of books programs and lecturers’ indexes, alongside with the books of biographies studied therein, we shall discover the reality of the

historical activity that the Andalousians' Senate in Bejaia had practiced. A spotlight had been thrown on the brilliant pupils, whom had learned historical disciplines (modules), also the titles of the literature news that were taught in their campuses. This will affect the general path in the progression of the historical consciousness in Bejaia of the 7th /13th Century, where we observe its relation with the Andalusian historical school seen by its famous lecturers in the city such as Ibn-Sarrāj Al-Ishbīlī, Ibn Al-Abbār Al-Balansī and Abū 'Abdallāh Muhammad b. Shāliḥ Al-Kinānī Al-Shātībī.

Key words: The Historical knowledge; Bejaia; The Andalusian Chiefdom; The Historical School; Central Maghreb.

ملخص: استقطبت مدينة بجاية خلال القرن 7 هـ / 13 م أعداداً معترفة من العناصر الأندلسية ذات العلاقة المباشرة بالتعرف التاريخية، والتي استقرت بالمدينة إما بصفة مؤقتة أو دائمة، هذه الأخيرة ارتكز نشاطها على تدريس مجموعة من المؤلفات الإخبارية على جملة من طلبة الحلقة، تبانت أصولهم بين عناصر جمائية أصلية وأخرى وافدة، وبالعودة إلى المخطوبات التاريخية المنتشرة في ثابا كتب البرامح وفهارس الشيوخ يضاف إليها كتب التراجم والطبقات، تكشف لنا حقيقة النشاط التاريخي الذي **قاده** المشيخة الأندلسية في بجاية، بتسليط الضوء على أبرز التلامذة الذين تلقوا مواد تاريخية وكذا عنوان المؤلفات الإخبارية المدرسة في حلقتهم. سوف يؤثر ذلك على المسار العام في تنامي الوعي التاريخي في بجاية القرن 7 هـ / 13 م، أين نزق ارتباطه بالمدرسة التاريخية الأندلسية ممثلة في أبرز شيوخها بالمدينة على غرار الرواية ابن السراج الاشبيلي، التاريخي ابن الأبار البليسي، وأبي عبد الله محمد بن صالح الكافي الشاطبي

الكلمات المفاتيح: المعرفة التاريخية، بجاية، المشيخة الأندلسية، المدرسة التاريخية، المغرب الأوسط.

من المؤكد أن الروابط والصلات الثقافية بين المغرب والأندلس في العصر الإسلامي تعود إلى أزمنة تاريخية مبكرة، تبانت أسبابها بين رغبة شخصية، غالباً ما تكون مثلاً أساساً في الرحلة إلى لقاء الشيوخ، أو ظروف اضطرارية، قد تكون متعلقة بالشخص في حد ذاته أو ظرف عام تمر به المنطقة.

ودون الدخول في تفاصيل أسباب الرحلة بين العدولتين ومتعلقاتها، فإنني في هذه الورقة سوف أتطرق لأهمية العنصر البشري في التفاعل المضارعي بين العدولتين، وذلك بتسليط الضوء على الجالية الأندلسية خلال القرن 7 هـ / 13 م في بجاية، ودورها في تعزيز المقول التاريخية، من خلال تصدرهم للإقراء وتدريسهم مجموعة من المؤلفات الإخبارية على جملة من التلامذة، سواء من المغرب الأوسط أو الوارددين إليه. على أن سendi الرئيسي في هذه المحاولة، هما كتاباً أصيل المنطقة أبي العباس الغربي (ت. 704 هـ / 1304 م)، الذي يرد علينا بـ "عنوان الدراسة" فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية⁽¹⁾ و"المشيخة"

(1) تحقيق رابح بونار، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970.

الملحقة باخر كتابه، إضافة إلى برناجي التنجيبي (ت 730 هـ / 1329 مـ)⁽²⁾، وأبي حعفر اللبلي (ت 691 هـ / 1291 مـ)، ورحلة العبدري (ت بعد: 688 هـ / 1289 مـ)⁽³⁾. ومن الملائم أن نشير هنا إلى أهمية هذه الأعمال الإخبارية، باعتبار أصحابها من أقاموا أو مروا بجایة في القرن الهجري السابع.

كما لا يخفى على أحد من المهتمين بالتأريخ للحركة العلمية في الغرب الإسلامي الوسيط، الدور البارز الذي تلعبه كتب البرامح⁽⁴⁾، في كشف النقاب عن عناوين المؤلفات التي كانت محورا للدراسة في حلقات الشيوخ، ومن ثمة إمكانية تحديدخلفية الفكرية والمرجعية المعرفية لمنطقة بجاية على التخصص باعتبارها موضوع الدراسة، ومن جهة أخرى تسليط الضوء على أبرز الشيوخ الذين تصدروا للإقراء وان ممكن التعرف حتى على الطريقة المتبعه في عملية التلقين وأماكن الإقراء، ناهيك عن معرفة أسماء التلامذة الذين كانوا يحضورون مجالس الشيوخ.

من المؤكد أن ما نتعلّم إلى كشف النقاب عنه، من إبراز ملامح تطور الفكر التاريخي في المغرب الأوسط مثلاً في منطقة بجاية خلال القرن 7 هـ / 13 مـ، أمر مهم ومفتت للانتباه لكن في ذات الوقت ليس بالهين اليسير، يعود ذلك أساساً إلى قلة المؤلفات المحلية، خصوصاً تلك التي تعالج مثل هذه المواضيع ويزداد الأمر تعقيداً إذا تعلق الأمر بالمغرب الأوسط والقسم الغربي من إفريقيا.

(2) أود أن نلتفت الانتباه فقط إلى وجود بعض الدراسات المهمة التي أخرجت حول برنامح التنجيبي، إضافة إلى الدراسة التي أخرجها ححق البرنامج عبد الحفيظ منصور، نذكر منها: دراسة الباحثة Ana Ramos Calvo رسالة دكتوراه، جامعة مدريد، سنة 1976. ونشرت في وقت سابق مقالا حول هذا البرنامج أيضاً عرضت فيه إحصاءات حول كمية وطبيعة المؤلفات التي درسها التنجيبي على عدد كبير من شيوخه تم نشره في: Ana Ramos Calvo, « Le Barnamag d'al-Tugibi », *Arabica* 24-3 (1974), pp. 291-298.

في ذات الاتجاه أيضاً أثير علاوة عمارة مقالا حول أهمية كتب البرامح والفالهارس في التاريخ الثقافي لبلاد المغرب، سلط فيه الضوء بشكل خاص على مكانة المؤلفات التاريخية مقارنة مع المؤلفات الأخرى المدروسة مستدعاً في ذلك على المعلميات التاريخية التي قدتها كل من ابن الحير الاشبيلي (ت 575 هـ / 1179 مـ) والتنجيبي في برنامجهما. Allaoua / Amara, « La transmission du savoir historique en al-Andalus et au Maghreb à la fin du Moyen Âge », *The Maghreb Review* 28-2/3, (2003), pp. 215-245.

(3) ينظر آسيا ساحلي "الرحلة العبدري، إشكالية غياب النخب العلمية بالغرب الأوسط مع نهاية الفترة الوسيطة". مجلة العالم التاريخية، عدد 13، (2012)، ص 97-88.

(4) من الدراسات المهمة التي سلطت الضوء على كتب البرامح في بلاد المغرب دراسة عبد الله المرايط الترغي الموسومة به: فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجهما تطورها قيمتها العلمية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، طلوان، مطبعة الحاج الجديدي، الدار البيضاء، 1999.

موقعة العقاب عامل حاسم في تكثيف تدفق العناصر الأندلسية إلى المجال البجاني

إن المتبوع للحالة السياسية والعسكرية التي كانت تعيشها العدوة الأندلسية مع نهاية القرن 6 هـ / 12 م ومطلع القرن 7 هـ / 13 م. لا يتردد في الجزم بحالة الضعف والانكسار التي شابت أغلب المدن الأندلسية في تلك المرحلة الحرجة. في مقابل ذلك نزق استعادة الملك الإسبانية لعافيتها وتوحيد جهودها في محاولة منها فرض هيمنتها على شبه الجزيرة الأيبيرية، وإحياء إسبانيا النصرانية وذلك بتعويض ما خسرته أمام القوى الإسلامية منذ نهاية القرن 1 هـ / 7 م.

بعد فقدان المسلمين عدداً من المدن الأندلسية على فترات مختلفة، كانت هزيمة الموحدين في معركة "العقاب" سنة 609 هـ / 1212 م، حداً مفصلياً، بتعته هرائم متلازمة ازدادت معها القبضة المسيحية على شبه الجزيرة الأيبيرية. وإلى غاية سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين سنة 897 هـ / 1492 م، كان منطقياً أن نلاحظ تدفق أعداد كبيرة من الحالية الأندلسية، التي استقرت بشكل مكثف بالحاضر الساحلي بما فيها بجاية العاصمة الثانية للسلطنة الحفصية وأحياناً مدينة منافسة لها، وليس أدل على ذلك من شهادة ابن خلدون، سليل أسرة عربية استقرت بالأندلس لتجد نفسها نتيجة لظروف معينة إحدى أبرز الأسر النازحة إلى إفريقية، حيث لخص لنا ذلك في كتابه "ال عبر"⁽⁵⁾ بالقول: "لما تکالب الطاغية على العدة والتهم غورها واكتسح بساعتها وأسف على قواعدها وأصارها أحاج الأعلام وأهل البيوت إلى أرض المغاربة وإفريقية وكان قصدهم إلى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصية بها".

وكانت هذه الجموع من الكثرة بحيث استطاعت أن تفرض نفوذها في البلاط، والإدارة وحتى في الحياة العامة، وأن تتمكن من إحداث تغيرات حاسمة في مجالات مختلفة، ما يهمنا في هذه العناصر هو تأثيرها الواضح على الحركة التعليمية في بجاية بشكل خاص، وعلى طبيعة المواد المدرسة في حلقات الدرس، وإن كانت معلوماتنا بهذا الصدد غير مفصلة، بحيث تمكيناً من التعرف بدقة عن أعدادهم، وبضبط نقطة استقرارهم واستيعاب مدى تأثيرهم في مجالس الإقراء بمبنية بجاية. فإن عدداً لا يستهان به منهم كانوا من فئة الشيوخ الذين تصدروا للإقراء في موطنهم الأصلي وقد ذاع صيتهم من قبل قدومهم إلى العدوة المغربية⁽⁶⁾.

(5) مراجعة سهيل زكار، دط، دار الفكر، بيروت، 2000، 6، 438.

(6) بين عدد من الدارسين دور الجماعة الأندلسية في بجاية وسيطرتها على الحياة العلمية بصفة عامة. يراجع حول هذا الموضوع: صالح بعييق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، تونس، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2006، ص 358-374، رفيق خليفى، "تطور استقرار الحالية الأندلسية في المغرب الأوسط"، مغرب أوسيطيات: دراسات في تاريخ وحضارة المغارب في العصر الإسلامي الوسيط، إشراف علاوة عمارة، قسنطينة، مكتبة افرا، Dominique Urvoy, « La structuration du monde des ulémas à Bougie au VII/XIII^e siècle », *Studia Islamica*, XLIII (1976), p. 87-107; Dominique Valérian, *Bougie, port maghrébin, 1067-1510*, Rome, École française de Rome, 2006, p. 519-524.

طبقة المؤرخين من الشيوخ الأندلسين الواردين إلى بجاية ينولون مهمة الإقراء

إن قراءة متأنية لكتب التراجم والطبقات المحلية منها والأندلسية، التي اهتمت بشكل مباشر بالترجمة لشخصيات أندلسية عاشت خلال القرن 7 هـ / 13 م. يجعلنا نكتشف أن عدداً معتبراً منهم كان على قوائم النازحين إلى منطقة بجاية دون الخوض في أسباب النزوح، فإن القاسم المشترك لهذه الفئة هي مساهمتها الفعالة في تدريس مجموعة من المؤلفات في فروع مختلفة، سوف نذكر حديثاً على طبقة المؤرخين دون سواهم، ومدى إسهامها في تلقين عدد من المؤلفات التاريخية – مجال اهتمامنا – على طلبة الحلقة التي كانوا يعقدونها بشكل خاص في المساجد التي أسندت إليهم، كمتولى صلاة الفريضة أو خطيب الجامع أو المنصين معاً. ما يشد الانتباه أكثر أن هذه الطبقة نزحت من قطر وصل فيه مستوى الوعي التاريخي لديها إلى مرحلة الضجيج، وتشكلت هناك مدرسة تاريخية أندلسية لها خصوصيتها⁽⁷⁾. تلك الخصوصية مستمدّة أساساً من الزخم الكبير الذي طبع مستوى الإنتاج التاريخي لديها كما وكيفما، بل ظهرت بها أسر اشتهرت بالتدوين التاريخي على غرار أسرة الرازيين⁽⁸⁾.

يبدو واضحاً أن تراجم قاضي مدينة بجاية الغربيي التي دونها في كتابه "عنوان الدراءة"، سوف يكون معتمدنا الأساسي في رصد أبرز الأسماء الأندلسية ذات العلاقة المباشرة بالمعرفة التاريخية، والتي كان لها دور في تعزيز النشاط التاريخي بالمنطقة. عليه يمكننا إحصاء على الأقل عشر شخصيات أندلسية نازحة إلى المنطقة، عُرفت بنشاطها التاريخي⁽⁹⁾.

(7)

حول خصائص المدرسة التاريخية الأندلسية. أخرجت العديد من الدراسات منها:

- ك. بويكا، المصادر التاريخية العربية في الأندلس، ترجمة نايف أبو كرم، دار علاء الدين، دمشق، 1999.
- علاوة عمارة، "الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط"، مجلة التاريخ العربي، عدد 32، (2004)، ص 333-369.

- عبد الواحد ذئون طه، مصادر في تاريخ المغرب والأندلس، دار المدار، بيروت، 2011.
- علي زيان، "المعرفة التاريخية في الأندلس خلال القرن 5 هـ / 11 م"، مذكرة ماجستير (غير منشورة)، إشراف علاوة عمارة، جامعة مونتوري، قسنطينة، 2011.

(8)

ألف مؤرخ البلاط الأموي أبو بكر أحمد بن موسى الرازي (ت 344 هـ / 955 م) مجموعة من الكتب التاريخية منها: كتاب في "أجياد أهل الأندلس وتاريخ دول الملوك فيها"، كتاب آخر في "أنساب مشاهير الأندلس" وكتاب "الاستيعاب في أنساب الأندلس" وله عنوان آخر في "أعيان المولى في الأندلس"، أما ابنه عيسى بن أحمد (ت 379 هـ / 989 م) فقد ألف مثل والده مؤلفاً تاريخياً للخلفية الأموي الحكم الثاني. هذا وتعتبر مؤلفاتهما ممتدان أساساً لأجياد الأندلس رجح إليها كل من ابن حيان وابن الأبار. إضافة إلى شخصية محمد بن موسى الرازي (ت 277 هـ / 890 م) صاحب كتاب "الرايات".

(9)

يمكن مراجعة هذه الشخصيات والمكانة التي حظيت بها في مدينة بجاية في مقالتي الموسوم بـ "انتقال المعرفة التاريخية بالغرب الأوسط مع نهاية الفترة الوسيطة"، مغرب وأساليب: دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، ص 215-217.

سوف نركز اهتمامنا فقط على ثلاثة شيوخ وهم: ابن السراج أبو الحسن علي (ت 657 هـ / 1258 م)، ابن الأبار القضاوي (ت 658 هـ / 1259 م)، أبو عبد الله محمد بن صالح الكتاني (ت بعد: 699 هـ / 1300 م). يعود ذلك أساساً إلى الإشارات الصريرة الواردة في بعض النصوص التاريخية، تؤكد على تدريسيهم مؤلفات تاريخية في حلقاتهم بجایة على طلبة الحلقة، سواء من المتنمين إليها أو حتى الواردين عليها، عليه يمكننا على الأقل تقدير النشاط التارخي لل Messiha الأندلسية في بجایة من خلال تتبع دور هؤلاء الشيوخ ورصد تلامذتهم والمواد المدرسة في حلقاتهم.

1/ الرواية ابن السراج الإشبيلي:

إن قراءة خاطفة للترجمة التي خصصها له الغربني⁽¹⁰⁾ واعتباره صاحب "رواية عالية متسعة"، يدرك جيداً طبيعة الوسط التاريخي الذي ينتهي إليه هذا الأخير، فهو ابن أحد الرواية التاريخي ابن الخير الإشبيلي (ت 575 هـ / 1179 م)، من أبرز تلامذة المؤرخ ابن بشكوال (ت 578 هـ / 1182 م)، والمؤرخ أبي القاسم السهيلي (ت 581 هـ / 1185 م). تولى الإقراء في بجایة مجموعة كبيرة من مشيخة الأندلس ذوي الاهتمامات التاريخية نذكر منهم، ابن الأبار، ابن سيد الناس (ت 659 هـ / 1260 م)، ابن صالح الكتاني... الخ. رغم هذا الوسط التاريخي المتميز، لم يذكر لنا الغربني طبيعة المؤلفات التي كان يدرسها هنا الأخير في بجایة، وأكفي بذلك تلامذته فقط.

وعلى الرغم من خيبة أمالنا تجاه المعلومات الشحيحة والباهتة، التي قدمها الغربني حول النشاط التارخي لابن السراج، ما جعلنا غير جازمين بتدرسيه مؤلفات تاريخية في بجایة، لأنّي هنا شهادة بالغة الأهمية لأحد تلاميذ ابن السراج في بجایة، يعني به أبو جعفر اللبلي "الأستاذ اللغوي التاريخي"، أحد الشيوخ المتنمين إلى طبقة المؤرخين الأندلسين الوفاريين على بجایة، هذا الأخير وإن خصص له الغربني ترجمة مقتضبة في عنوانه⁽¹¹⁾، لم يذكره كتلميذ لابن السراج، مكتفيا بالإشارة إلى ممارسته مهنة الإقراء في المدة التي سكّها في بجایة.

ذكر برنامج هذا التلميذ اللبلي⁽¹²⁾ صراحة قراءاته على شيخه ابن السراج أثناء إقامته في بجایة، جميع مؤلفات أبي القاسم السهيلي وسمى منها كتابه في السيرة الموسوم بـ "الروض الأنف الباسم"، إضافة إلى مؤلفات أخرى⁽¹³⁾.

(10) مصدر سابق، ص 181-182. ويحصل إسناد الغربني بالشيخ ابن السراج بطريق عدد من شيوخه في بجایة، منهم الشيخ أبي عبد الله الكتاني، الشيخ أبي العباس أحد بن حضر الصدي، الشيخ أبي جعفر أحد المكتب. ينظر: الغربني، المشيخة، ص 310، 311، 315، 316، 319، 321، 322.

(11) مصدر سابق، ص 300.

(12) تحقيق محمد بوزيان بنعلي، طنجة، مطبعة اسبارتيل، 2011، ص 52.

(13) منها: كتاب "سبيل الخوات" لأبي الحسن يحيى بن نجاح ابن القلاس الأموي القرطبي (ت 422 هـ / 1030 م). ينظر:

أما برنامج التجيبي⁽¹⁴⁾، فيكشف لنا عن تلميذ ثان لابن السراج في بجاية، من درسوا عليه كتاباً تاريخية، نعني به نزيل بجاية وخطيب جامعها الأعظم أبا عبد الله بن صالح الكتاني. أين يظهر لنا اسم ابن السراج في سلاسل أنسانيد بعض المؤلفات التاريخية التي درسها عليه تلميذه الكتاني، الجدول التالي يرصد لنا أربعة مؤلفات تاريخية درسها الكتاني على شيخه ابن السراج استناداً إلى سلاسل أنسانيد التجيبي الواردة في برنامجه:

عنوان الكتاب	صاحب الكتاب	نوعه	طريقة التحمل	الصفحة
الدرر في اختصار المغازي	ابن عبد البر (ت 463 هـ / 1070 م)	السيرة	متناولة	134
الشفا	القاضي عياض (ت 544 هـ / 1149 م)	السيرة	قراءة	138
صلة	ابن بشكوال (ت 578 هـ / 1182 م)	التراجم	متناولة	263 - 262
القصد والأمم	ابن عبد البر	الأنساب	قراءة	265

و قبل أن نختتم حديثنا حول دور ابن السراج في تلقين مجموعة من المؤلفات التاريخية على طلبة الخلقة في بجاية، لفت انتباهي قيام هذا الأخير بتدريس كتاب شيخه ابن بشكوال "الصلة" على تلميذ آخر له ونعني به الشيخ محمد بن إبراهيم البفقي السلمي (ت 694 هـ / 1294 م)، لكن جهلنا بمكان الإقراء حال دون الاستفادة من هذه المعطيات الإخبارية المهمة، وما زاد الأمر غموضاً عدم إدراج الشيخ أبي القاسم البفقي، ضمن قائمة الشيوخ الواردين إلى بجاية القرن الهجري السابع في "عنوان الدررية" على الأقل، كل هذا جعلني أستبعد بجاية كمكان للقاء والدرس وأرجح أن تكون إحدى الحواضر الأندلسية، باعتبار أن كل من الشيخ والتلميذ ينحدران من أصول أندلسية. لكن بالتدقيق أكثر في السنة التي قام فيها ابن السراج بتدريس كتاب "الصلة" على تلميذه الشيخ البفقي، والمصرح به في برنامج التجيبي⁽¹⁵⁾ وهو سنة 656 هـ / 1257 م، أي قبل وفاة الشيخ ابن السراج بسنة واحدة فند تلك الاحتمالات، بل جعلنا نرشح بجاية كمكان للدرس دون غيرها، لمعرفتنا المسقة أن الرواية ابن السراج من استقر في المدينة بصفة نحائية وتوفي بها، وفي الاتجاه المقابل مراجعتنا لنص الترجمة الذي خصصه صاحب "الإحاطة"⁽¹⁶⁾ للتلميذ الشيخ

المصدر نفسه، ص 69.

(14) تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية لل الكتاب، ليبيا، تونس، 1981.

(15) المصدر نفسه، ص 262.

(16) ابن الخطيب، الإحاطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الحاخامي، القاهرة، 1977، 4/ 248-251. ابن القاضي، درة الحال، تحقيق الأحمدى أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار الزايد، القاهرة، 1971، 2/ 59-60.

البلفيقي، يؤكد فيها تلمذة على شيخه ابن السراج، كما أسعفنا بإشارة مهمة مفادها قيام هذا الأخير برحلة إلى بلاد المغرب للقاء الشيوخ⁽¹⁷⁾، إلا أن صاحب "الإحاطة"، وعلى الرغم من عدم ذكره للحواضر العلمية التي حل بها، فالعودة إلى تاريخ سماعه للكتاب على شيخه ابن السراج، يجعلنا نعتقد أن مدينة بجاية كانت إحدى محطات البلفيقي، أين التقى بشيخه ابن السراج بتاريخ 656 هـ / 1257 م ودرس عليه "صلة شيخه".

والى غاية ظهور مصادر إخبارية أخرى، من شأنها أن تزيل الكثير من الغموض الذي يكتنف بعضاً من جوانب النشاط التاريخي للشيخ ابن السراج، فإن محاولتي تقاصي تلامذة هذا الأخير في بجاية أفضت إلى العثور على ثلاثة منهم (أبي جعفر اللبلي، أبي عبد الله بن صالح الكناني، أبي القاسم البلفيقي)، وهنا تتكشف لنا بشكل ملموس أهمية كتب البرامج في إعطاء صورة واضحة عن عناوين المؤلفات التاريخية التي كانت متداولة في حلقة الشيوخ، ناهيك عن ضبطها لزمن ومكان الإقراء في بعض الأحيان.

2/ ابن الأبار القصاعي، أبو عبد الله محمد (ت 658 هـ / 1259 م)

من دون تردد يمكن القول إن هذا "الشيخ الفقيه الكاتب الباع التاريخي"، يعتبر من أبرز الشخصيات التاريخية التي أدرجت على لائحة الوفدين على بجاية في كتاب الغربي⁽¹⁸⁾، الذي أكد لنا قيام صاحب كتاب "التكلمة" في المدة التي أقامها هناك بالتدريس والإقراء والتصنيف، هذه الشهادة المهمة تعززت بما أورده صاحب "الذيل والتكلمة"⁽¹⁹⁾ أيضاً، من عكوف هذا الأخير في المدة الطويلة تلك، بنشر العلم بل صنف بها كتابه "إعتاب الكتاب"، الذي لا يخلو مغراه من محاولة ابن الأبار التعدد والتقرب لولي نعمته السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى (647-626 هـ / 1228-1249 م) بالحاضرة تونس، وفي سياق متصل بتجده في جامع بجاية الأعظم، يقرأ فيه "سنن الدارقطني (ت 385 هـ / 995 م) على شيخه الرواية ابن السراج (ت 657 هـ / 1258 م)⁽²⁰⁾.

(17) نوه هنا فقط، إلى تواجد ابنه أبي البركات البلفيقي (ت 773 هـ / 1371 م)، في بجاية ولقائه بناصر الدين المشدالي والدراسة عليه. حوله ينظر: النباهي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق صلاح الدين الهاوري، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص 174-177. المقري، نفح الطيب من غصن الأندرلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، 471/5-487. أما الأب أبي إسحاق البلفيقي فمن شيوخ ابن رشد السفيسي (ت 721 هـ / 1321 م) الذي أكد دراسته عليه بتونس سنة 684 هـ / 1285 م، في رحلاته الموسومة بملء العيبة، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1982، 2/ 127-156.

(18) مصادر سابق، ص 259.

(19) تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1973، 269/6.

(20) ابن الأبار، معجم شيوخه، تحقيق محمود الدومي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2010، ص 93-94.

لا نشك مطلقاً في أن ابن الأبار، كان من العناصر الأندلسية النشطة في بجاية القرن السابع هجري، لكن الإشكالية الجوهرية التي تطرح علينا هنا باللحاج، هي غياب إشارات صريحة في المصادر الإخبارية، التي اهتمت بالترجمة له، تؤكد قيامه بتدريس مؤلفات تاريخية في المنطقة، حتى نستطيع تقدير نشاطه التاريخي. وهو ما يدفعنا إلى التفتيش عن الأسباب الخفية التي تقف وراء ذلك. هل يعود فقط إلى كون طبيعة كتب التراجم والطبقات، التي غالباً ما تذكر اهتمامها على ذكر شيوخ وتلامذة صاحب الترجمة إجمالاً، دون الخوض في تفاصيل المواد المدرسة وأماكن الدرس، التي هي في الأصل من اختصاص كتب البرامج وفهارس الشيوخ، أم أن الأمر يتعدى ذلك؟

لن نذهب بعيداً في تحليل هذه المسألة ومناقشتها عن كتب البرامج، لنستعين مرة أخرى ببرنامج التجبي، أين نقرأ اسم ابن الأبار يبرز في سلسل أسماء تلميذه الشيخ أبي عبد الله الكناني وقد درس عليه كتابين في التاريخ. الكتاب الأول هو "درر السمط في خير السبط"⁽²¹⁾ حيث قام ابن الأبار بتدريس كتابه "الدرر" للشيخ الكناني في حلقة وبالضبط بتاريخ حرم سنة 654 هـ / 1256 م⁽²²⁾، أي أربع سنوات فقط قبل وفاته، أما الكتاب الثاني فهو كتاب "الضعفاء والمتروكين" للبحاري (ت 256 هـ / 869 م)⁽²³⁾. نلتف الانتباه هنا، إلى أن التجبي وإن لم يذكر لنا المكان الذي درس فيه الشيخ أبو عبد الله الكناني على شيخه ابن الأبار، إلا أنه يمكننا الجزم بكونه بجاية وليس مكاناً آخر لسببين: أولهما أن ابن الأبار كان في هذه الفترة بالذات في بجاية في أعقاب الجفوة التي حصلت له مع صاحب البلاط الحفصي بتونس. ثانهما أن التلميذ الشيخ الكناني وعلى حسب ما ذكره الغيرني استقر في المدينة بصفة تجائية منذ مدة طويلة ولم ينتقل منها إلى مكان آخر، على الأقل نجده بالتأكيد في بجاية في أول سنة 654 هـ / 1256 م، يلتقي فيها بصديقه ابن محرز اللبناني (ت 655 هـ / 1257 م)⁽²⁴⁾. وهو التاريخ ذاته الذي التقى فيه بشيخه ابن الأبار ودرس عليه كتابه "درر".

وإن تمكنا من الكشف عن أبرز تلاميذ التاريخي ابن الأبار في بجاية، فمن أخذ عنه بعضاً من المؤلفات التاريخية⁽²⁵⁾. ومن ثمة تسليط الضوء على جانب من جوانب النشاط التاريخي لهذا المؤرخ. لكن بشكل ضئيل

(21) تحقيق عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1987. وهو كتاب في مراثي آل البيت يحكي فيه سيرتهم ومناقبهم، وفي ذات الاتجاه ألف كتابه "اللحين في مراثي الحسين"، اطلع عليه الغيرني، مصدر سابق، ص 261. وأنثى عليه بالقول "لو لم يكن له من التأليف إلا الكتاب المسمى بكتاب اللحين في مراثي الحسين لكفاه في ارتفاع درجة وعلو منصبه وسمو رتبته".

(22) التجبي، مصدر سابق، ص 259.

(23) المصدر نفسه، ص 261-260.

(24) الغيرني، مصدر سابق، ص 104-105.

(25) نفهم من حديث الغيرني في "عنوانه"، ص 259. عن اتصال سنده بابن الأبار عن طريق الشيختين أبي عبد الله الكناني والشيخ أبي العباس بن حضر. إلى وجود تلميذ آخر لابن الأبار في بجاية وهو الشيخ أبو العباس بن حضر، لكننا نجهل

وباهت لا يرقى إلى مستوى الشخصية المحدث عنها في بجاية، خصوصاً إذا علمنا أن كتابه التارخي "التكلمة"، الذي بقي يحيطنا بعناته ويقوم بالتصحيحات والتعديلات عليه إلى غاية سنة 655 هـ / 1257 م، أي ثلاث سنوات فقط قبل وفاته⁽²⁶⁾. كانت مبضنته تلك بحوزة تلميذه الملازم له بتونس ابن الجلاب (ت 664 هـ / 1265 م)⁽²⁷⁾، أين قام هذا التلميذ بإعادة نسخ كتاب شيخه بناء على تلك المبضة، لتعرف بعدها نسخة ابن الجلاب الأم الفاسدة، طريقها إلى الموطن الأصلي مؤلفها الأندلس وبالتحديد بغز منورقة، حيث قام كل من محمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني وابن الحكم سعيد بن حكم بمعارضته وتصحيح نسخة "التكلمة" بأصل ابن الجلاب، كان ذلك يوم الجمعة 10 جمادى الآخرة سنة 661 هـ / 1262 م⁽²⁸⁾. معنى آخر أن كتاب ابن الأبار عبر إلى بر العدوة الأندلسية بعد ثلاثة سنوات فقط من اغتيال صاحبه، ليجده هذا الكتاب من النكبة التي لحقت بصاحبه ومجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه⁽²⁹⁾، ولا يستبعد أن تكون تلك النسخة هي النسخة الأم التي انشقت منها باقي النسخ⁽³⁰⁾.

كما أن حاضرة العزفرين سبتة، لم تكن استثناء في ذلك حيث عرفت "التكلمة" طريقها إلى العدوة المغربية مرة أخرى وإن كانت متاخرة نسبياً، لكن قبل نهاية القرن 7 هـ / 13 م، أين كانت تدرس في حلقة أحد تلاميذ ابن الأبار ومن أحجازه في رواية تكلمه⁽³¹⁾، يعني به الشيخ البليفي (ت 694 هـ / 1294 م) ما

(26) تماماً طبيعة المواد الدراسية التي تعاطاها هذا التلميذ على شيخه ابن الأبار، ما يجعلنا نكتفي فقط بإشارة الغربي تلوك، حول تاريخ تأليف كتاب ابن الأبار والتصحيحات التي قام بها. ينظر: الدراسة التي أجرتها كل من ألفريد بل ومحمد بن أبي شنب التي قدمها نص تحقيقهما للقسم المفقود من التكلمة، مطبعة فونطانا، الجزائر، 1920. ص 8-1.

(27) ينظر ترجمته: ابن عبد الملك المراكشي، مصدر سابق، 54-52/6.

(28) يعرف ذلك من خلال توقيع أحد المصححين للنسخة وهو التلمساني الذي كتب بخطه على الورقة الأولى من خطوطه الخزانة الحسينية المدرجة تحت رقم (1411). وعن هذه النسخة تتفرع نسخة المكتبة الوطنية باليهود المدرجة تحت رقم (ك 358). لمعرفة المزيد من التفصيل عن نسخة هذه النسخة. ينظر: محمد المنوي، ورقات عن حضارة المرينيين، ط 2، مطبعة النجاح الجديدية، الدار البيضاء، 1996، ص 503-502.

(29) من أجل معرفة المزيد من التفصيل حول أسباب مقتل ابن الأبار بأمر من السلطان الخصي أبي عبد الله المستنصر (ك 675-647 هـ / 1277-1249 م). ينظر: ابن حليدون، مصدر سابق، 418/6-419. المقري التلمساني، أزهار الرياض، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2010، 211/3-213.

(30) إضافة إلى النسخة التي أشرنا إليها سابقاً التي تحت رقم (ك 358)، تحفظ المكتبة الوطنية باليهود كذلك، بنسختين عتيقتين لتكلمة ابن الأبار، النسخة الأولى تحت رقم (د 4135) (د) تقيد الطرر الموجودة بها والعبارات المشتبه على الورقة الأولى ببنفاستها. أما النسخة الثانية فعليها تملّك بخي بن محمد بن أحد بن محمد اللخمي العزي وهي تحت رقم (ك 214). كما تحفظ مكتبة دير الأسكوكيل بنسخة عتيقة غير مؤرخة تحت رقم (ك 1673 = 1673 كسيري)، إضافة إلى نسخة أخرى تحت رقم (ك 1675 = 1670 كسيري).

(31) التجيبي، مصدر سابق، 262. وفي ذات السياق قدم لنا ابن الخطيب في كتابه الإحاطة، 3/ 251-250 قائمة طويلة لشيخ البليفي في الترجمة التي خصه بها وذكر منهم شيخه ابن الأبار وابن السراج.

يستدعي الاهتمام هنا، أن هذا الأخير من تلاميذ ابن السراج في بجاية وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، كما يعتبر من أبرز شيوخ التجبي في سنته، وقد درس عليه "التكلمة"، يضاف إليها مؤلفات تاريخية أخرى⁽³²⁾. إذا تأكد لدينا انتشار كتاب "التكلمة"، في بعض حواضر الغرب الإسلامي الوسيط في النصف الثاني من القرن 7 هـ / 13 م، تولى ذلك تلاميذه ابن الأبار منهم ابن الجلاب وأبي القاسم البليفيقي، إما بطريق التدريس أو النسخ، فمن المستبعد أن تكون بجاية استثناء في هذا، وان كانت تعوزنا المادة الخيرية الكافية المتعلقة بهذا الشأن، فإن إشارة من الغربيي التي أوردها في أعقاب ترجمته للراوية ابن برطلة الأزدي (ت 661 هـ / 1262 م)⁽³³⁾، أين أحوال فيها إلى مراجعة نص "التكلمة"، فيما يتعلق بالأصول التي ينحدر منها هذا الأخير، يفهم منها بما لا يدعو للشك المعرفة الدقيقة بمحظى "التكلمة" من طرف الغربيي، وبالفعل العودة إلى نص "التكلمة" المتداول بين أيدينا الآن، يحوي ترجمة لكلٍ من والد ابن برطلة وجده⁽³⁴⁾، رغم تأكيدنا ذلك فإننا في ذات الوقت لا نعرفحقيقة مطالعته لهذا الكتاب، هل كان من نسخة شخصية كان يمتلكها ومن ثمة عاد إليها أثناء تأليفه لعنوان الدرية؟ أم أنه اطلع عليه في أحد الأمكنة التي كان يتعدد عليها، قد يكون بجاية أو حتى تونس الحاضنة الأولى التي ابنتقت منها نسخة "التكلمة".

3/ أبو عبد الله محمد بن صالح بن أحمد الكتاني الشاطبي (ت بعد: 699 هـ / 1300 م)

يعتبر أبو عبد الله الكتاني من الشيوخ البارزين الذين تولوا مهنة التدريس والإقراء في بجاية، تكفيه في ذلك شهادة تلميذه الغربيي⁽³⁵⁾ في الترجمة التي خصه بها قائلاً : "روى ودرس واستجاز وأجاز وروى واقرأ واستمتع واستفزع به حلق كثير"، كما أنه تولى الفريضة والخطبة بجماعتها الأعظم ما ينفي على الثلاثين عاماً. لا نعرف عن أبي عبد الله الكتاني انتسابه إلى طبقة المؤرخين الأندلسيين، بل شهرته أوسع في تدريس اللغة العربية وفروعها إضافة إلى علوم الحديث والقراءات، لكن ذلك لم يكن ليمنعه من تدريس مجموعة من المؤلفات التاريخية في حلقاته.

وبالنظر إلى نشاطه التاريخي البارز في المنطقة، يمكن اعتباره الحلقة الأساسية الأوسع، التي ترتكز عليها عملية تلقين المعرفة التاريخية لمجموعة من طلبة الحلقة في بجاية خلال القرن 7 هـ / 13 م، وهنا نذكر

(32) المؤلفات التاريخية التي درسها التجبي في سنته على شيخه أبي القاسم البليفيقي هي: تاريخ الفقهاء ورواية تاريخ الفقهاء والرواية لابن الفرضي، صلة ابن بشكوال، كتاب الذيل لكتاب الصلة لابن فرون السلمي. حولها ينظر: التجبي، مصدر سابق، ص 262، 263.

(33) المصدر نفسه، ص 271.

(34) ينظر ترجمتهما: ابن الأبار، التكلمة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام المراس، بيروت، دار الفكر، 1995، 2-266، .42-41/3، 268.

(35) مصدر سابق، ص 104.

بأهمية برنامج شيوخه الصنائع، الذي لا نعرف عنه سوى قيام الشيخ الكتاني بتدریسه على تلامذته في الحلقة⁽³⁶⁾. يضاف إليه أيضاً برنامج ابن حماد الصنهاجي (ت 628 هـ / 1230 م) الصنائع.

بداية مع تلميذه سليل المنطقة وقاضي المدينة الغربي، من الملازمين حلقة شيخه ومن أكثر القراءة عليه والرواية عنه⁽³⁷⁾، درس عليه مؤلفات في الفقه والأصولين والحديث والتصوف والتفسير واللغة العربية وفروعها. يقدم لنا الجدول التالي لائحة تتكون من سبعة مؤلفات درسها على شيخه استناداً إلى مشيخته.

الكتاب المدروس	نوعه	الصفحة
موطأ مالك بن أنس (ت 179 هـ / 795 م)	الحادي	311
الكشف لأبي القاسم الزمخشري (ت 538 هـ / 1143 م)	التفسير	311
الجامع البخاري لأبي عبد الله محمد (ت 256 هـ / 869 م)	الحادي	312
المسندي لإمام مسلم بن الحجاج (ت 261 هـ / 874 م)	الحادي	312
جامع الترمذى لأبي عيسى محمد (ت 279 هـ / 892 م)	الحادي	312
الرسالة لأبي القاسم القشيري (ت 465 هـ / 1072 م)	التصوف	321
الإرشاد لأبي المعالي الجوهري (ت 478 هـ / 1085 م)	علم الكلام	321

يتضح من الجدول أعلاه، دراسة الغربي مجموعة من المؤلفات في علوم مختلفة على شيخه وبشكل خاص أمهات كتب الحديث وغيرها، إلا أنه لم يشر مطلقاً إلى دراسته مؤلفات تاريخية، ما يجعلنا ننبه إلى طريقة تصنيفه للعلوم⁽³⁸⁾ بين علوم الدراسة والرواية، هذا التقسيم لا يدرج علم التاريخ ضمنها، وعلى هذا الأساس صنف كتابه⁽³⁹⁾، ربما يعكس هذا جزءاً من سبب عدم تسميته مؤلفات تاريخية درسها على شيوخه.

أما التلميذ الثاني، فهو أحد الطلبة الوافدين على مدينة بجاية، صاحب الرحلة، البلنسي الأصل محمد بن محمد العبدري الحيحي،تحق بحلقة الشيخ مرتين في أثناء وجهته إلى البقاع المقدسة بغرض أداء مناسك

(36) قام الشيخ أبو عبد الله الكتاني بتدریس برنامجه لبعض طلابه، منهم العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق أحمد بن جدو، مطبعة البعث، قسنطينة، 1964، ص 130. الترجي أشار إلى ذلك في برنامجه، ص 249. كما تدل العبارات الواردة في عنوان الدرية، ص 107. اطلاع الغربي على برنامج شيخه.

(37) المصدر نفسه، ص 106.

(38) لمزيد من التفصيل حول تصنیف العلوم في الفكر الإسلامي، ينظر: عموري عليش، تصنیف العلوم في الفكر الإسلامي، الفارابي، الغزالی، ابن خلدون، الجزائر، دار هومة، 2009.

(39) لمزيد من التفصيل حول مفهوم علوم الدراسة والرواية عند الغربي، ينظر: عنوان الدرية، ص 307.

الحج والعودة منها، أينقرأ عليه مجموعة من المؤلفات في فنون مختلفة⁽⁴⁰⁾، ما يهمنا دراسته مجموعة من المؤلفات ذات الصلة بالمعرفة التاريخية، التي أتى على ذكرها في نص الرحلة، وعليه أنجزت الجدول التالي:

الكتاب المدروس	الصفحة	الوجهة	صيغة التحمل	نوعه
الشمائل للترمذى (ت 279 هـ / 892 م)	30	الذهب	قراءة ومناولة	السيرة
درر السمعط لابن الأبار (ت 658 هـ / 1259 م)	130	العودة	قراءة	مناقب آل آليت
منتصر حلية الأولياء لأبي نعيم لابن قوش أبي الحسن عبيد الله النفري	130	العودة	مناولة	تراجم الصوفية

على أن أبرز الطلبة الوافدين إلى بجاية، الذين التحقوا بحلقة الشيخ الكتاني مع نهاية القرن السابع المجري هو التجيبي، التي نزل بها سنة 694 هـ / 1294 م⁽⁴¹⁾. التقى فيها الشيخ ناصر الدين المشداي (ت 731 هـ / 1330 م)، درس عليه مجموعة من المؤلفات الفقهية⁽⁴²⁾. لكن تركيزنا سوف يكون على حلقة شيخه ابن صالح الكتاني، الذي درس عليه مجموعة من المؤلفات التاريخية، أتى على ذكرها في برنامج شيوخه، ومن أجل تسلیط الضوء عليها بشكل مباشر، وضعنا الجدول التالي:

(40) من أجل معرفة المؤلفات التي درسها العبدري على شيخه أبي عبد الله الكتاني في بجاية في طريق الذهب والعودة. ينظر: العبدري، مصدر سابق، ص 28-24، 131-130.

(41) استنادا إلى ما أورده في برنامجه، ص ص 160-161. ذكر التجيبي دراسته لكتاب "الأربعين حديثا عن الأربعين شيخا من رجال الأندلس" جمع ابن الأبار، على شيخه أبي عبد الله الكتاني ببجاية في ثلاثة مجالس آخرها 29 ذي الحجة 694 هـ / 1294 م. وفي السنة المولالية أى سنة 695 هـ / 1295 م. كان أيضا في بجاية أين درس بما على شيخه الكتاني كتاب ابن الأبار "درر السمعط" في الناسع من شهر محرم وفي 29 من شهر ربى الثاني كما أعاد عليه قراءة كتاب "الأربعين حديثا". على أنه في هذه السنة أى 695 هـ / 1295 م، غادر بجاية ليحط رحاله بمدينة تونس وبالضبط في شهر رجب، أين نجده في حلقة الشيخ حرز الله بن أبي محمد محز و قد درس عليه كتاب "أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لابن إسحاق". حول ذلك. ينظر: المصدر نفسه، ص 250.

(42) لمعرفة عنوان المؤلفات التي درسها التجيبي ببجاية على شيخه المشداي. ينظر: المصدر نفسه، ص 239، 267، 272، 274.

الكتاب المدروس	نوعه	انتماه	طريقة التحمل	الصفحة
شمائل النبي لأبي عيسى الترمذى	السيرة	مشرقي	قراءة	110
سيرة ابن إسحاق (ت 150 هـ / 767 م)	السيرة	مشرقي	إجازة وتناوله	129
الدرر في اختصار المغازي لابن عبد البر (ت 463 هـ / 1070 م)	السيرة	أندلسي	قراءة	134
الشفا للقاضي عياض (ت 544 هـ / 1149 م)	السيرة	مغربي	قراءة وتناوله	138
المقتضب من حلية الأولياء لأبي نعيم لابن قوش أبو الحسين التفزي	الترجم	أندلسي	قراءة وتناوله	258
الضعفاء والمتروكين للبيخاري	ترجم	مشرقي	قراءة وتناوله	261-260
المؤتلف والمختلف لأبي محمد عبد الغنى الأزدي (ت 409 هـ / 1018 م)	ترجم	مشرقي	قراءة وتناوله	264
طبقات القراء لأبي عمرو المدائى (ت 444 هـ / 1052 م)	الترجم	أندلسي	إجازة وتناوله	44
الصلة لابن بشكول القطري (ت 578 هـ / 1182 م)	الترجم	أندلسي	قراءة وتناوله	263-262
درر السمعط لابن الأبار (ت 658 هـ / 1259 م)	المناقب	أندلسي	قراءة	259
القصد والأمم لابن عبد البر	الأسباب	أندلسي	قراءة ومحادثة	265
مشتهى السعة في ضبط أسماء الرواية لأبي محمد عبد الغنى الأزدي	الترجم	مشرقي	قراءة وتناوله	265

من خلال الجدول أعلاه يمكن تسجيل عدة ملاحظات بحملها فيما يلي:

نقر ببداية أن مجموع المؤلفات التي درسها التمجيبي في برنامجه بلغت نحو 340 كتاباً⁽⁴³⁾، درس منها حوالي 48 كتاباً في حلقة شيخه أبي عبد الله الكتاني في فنون مختلفة⁽⁴⁴⁾. هذا وقد بلغ مجموع الكتب التاريخية التي درسها في برنامجه حوالي 28 كتاباً، منها 12 كتاباً تاريخياً درسه على شيخه الكتاني، وعناوينها مثبتة في

(43) أكدت الباحثة A. Ramos في مقالها حول برنامج التمجيبي، أن عدد الكتب المثبتة فيه بلغت 340 كتاباً منها 70 كتاباً أندلسياً ما يمثل نسبة 20.5% من مجموع الكتب، وبشكل المؤلفين المشارقة 60%. أما مؤلفات الغرب الإسلامي فشكلت ما نسبته 40% من هذه الأخيرة 16% مغربية و24% أندلسية. ينظر: A. Ramos Calvo, *op. cit.*, p. 298.

(44) لمعرفة عنوانين هذه المؤلفات. ينظر: ص 35، 36، 39، 43، 44، 45، 50، 57، 67، 76، 90، 141، 142، 141، 150، 165، 235، 237، 235، 245، 246، 248، 249، 252، 253، 254، 255، 286.

- الجدول أعلاه. وهي بذلك تمثل ما يقرب $\frac{1}{2}$ مجموع المؤلفات التاريخية المدروسة في البرنامج⁽⁴⁵⁾، كما تمثل $\frac{1}{4}$ مجموع المؤلفات التي درسها على شيخه.
- نافت الانتهاء أيضاً، أنه من أصل 12 كتاباً تاريخياً التي درسها التجيبي في بجاية، توجد منها 6 مؤلفات درسها في بجاية⁽⁴⁶⁾ فقط دون غيرها من المؤلفات الأخرى، التي توزعت حصصها التدريسية لتلك المؤلفات، كما في هذا الجدول التوضيحي:

الحاضرة	عدد المؤلفات التاريخية المدروسة بها	الصفحة من البرنامج
الحلاقة	3	266، 263، 244
سبتة	10	128، 111، 137، 132، 262، 263
تونس	2	250، 135
حواضر مصر ⁽⁴⁷⁾	10	131، 130، 111، 264، 265، 251، 135
دمشق	2	261، 260
مكة المكرمة	2	136، 111

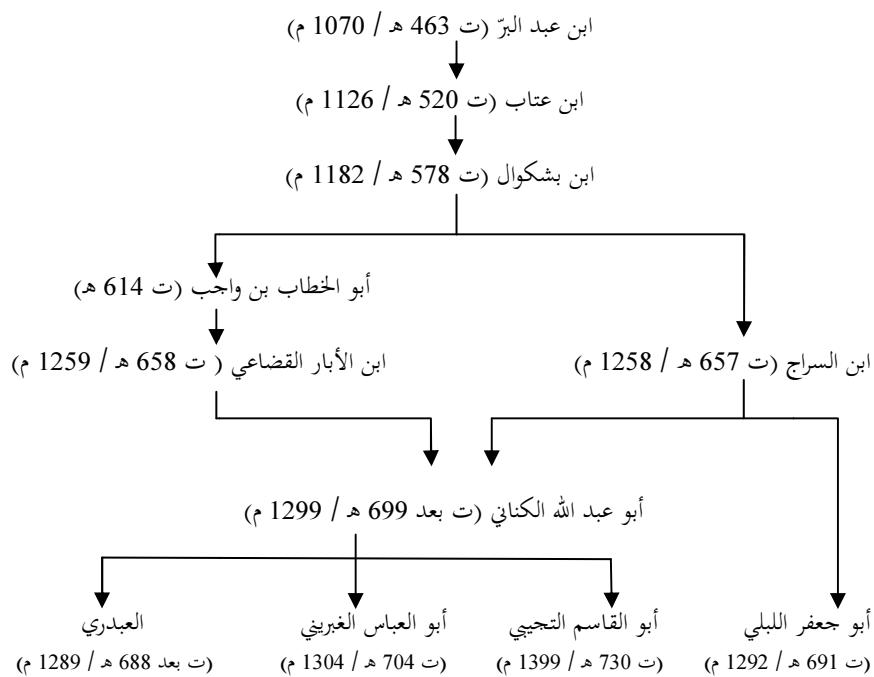
ما نريد التأكيد عليه من خلال هذه الإحصائية، هو توضيح أهمية مدينة بجاية، كحاضرة علمية كانت من أبرز النقاط التي ساهمت في التكوين التاريخي للتجيبي في رحلته العلمية⁽⁴⁸⁾، التي قام بها مع نهاية القرن السابع هجري وقد مثل شيخه أبي عبد الله الكتاني نقطة الارتكاز الأساسية بها. ومن أجل إعطاء صورة أوضح عن أهمية الشيخ أبي عبد الله الكتاني واعتباره حلقة وصل بين العدويتين الأندلسية مثلثة في الرواية المؤرخ ابن عبد البر التميمي وتلامذته من بعده، والمغربية ممثلة في طيبة الحلقة في بجاية. والكشف عن أبرز أسماء الشيوخ المؤرخين الأندلسيين الذين شكلوا حلقة وصل في سلسلة أسانيد الرواية التاريخية، موضوعة في هذه السلسلة:

(45) معرفة مكانة الدراسات التاريخية في هذا البرنامج. ينظر: Allaoua Amara. « La transmission du savoir historique », *op. cit.*, pp. 219-225.

(46) المؤلفات التاريخية التي درسها التجيبي في بجاية فقط دون غيرها هي: كتاب "المقتضب من حلبة الأولياء"، كتاب "الضعناء والمتزوكن"، كتاب "طيفات القراء"، كتاب "درر السمعط"، كتاب "القصد والأمم"، كتاب "مشتبه النسبة".

(47) التحق التجيبي بحلقات الشيخ التي كانت تعقد في مختلف حواضر مصر، ودرس بها مجموعة متعددة من المؤلفات التاريخية حيث كان نصيبي الإسكندرية الأعلى بمجموع 4 مؤلفات تاريخية تليها القاهرة بمجموع 3 مؤلفات أما مدينة قوص، الفسطاط والقرافة، فنصيبي كل واحدة منها مؤلف واحد.

(48) من مؤلفات التجيبي رحلته العلمية الموسومة بمستفadem الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، 1975. لكن ضياع قسم كبير منها خصوصاً الجزء المتعلق ببلاد المغرب، فوت علينا فرصة الاستفادة منها.



رواج مؤلفات السيرة النبوية وكتب التراجم والطبقات المشرفة والأندلسية في الحلقة

إن قراءة فاحصة لنوعية المؤلفات التاريخية التي كانت مدار التلقين في بجاية القرن السابع هجري، تؤكد على الانتشار الواسع لكتب السيرة النبوية، في مقدمتها: اثنان مشرقيان هما "سيرة ابن إسحاق" و"شمائل" التمذدي وأثنان أندلسيان وعني بهما "الدر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر النمري وكتاب "الروض الأنف" لأبي القاسم السهيلي، أما الكتاب المغربي الوحيد فهو كتاب "الشفاف" للقاضي عياض، هذه الخمسة عنوانين تعكس افتتاح الوسط العلمي البجائي على مختلف التيارات الإخبارية، مع تركيز اهتمامها على كتب السيرة النبوية، باعتبارها تتمحور حول شخصية الرسول ﷺ.

أما كتب التراجم والطبقات التي تم تداولها في هذه المرحلة على الأقل، تشتهر كلها في العناية بتراث رواة الحديث، الذي له علاقة مباشرة بعلم "الجرح والتعديل" أو ما يعرف بـ "علم الرجال"، ومنه كانت الحاجة ماسة إلى معرفة سلسلة رجال الحديث، أنساهم، قبائلهم، تراجم أهل العلم المعتمد عليهم. وعليه يمكن التأكيد على أن الاهتمام بالآثار النبوية، أقوال، وأفعال ومعايري الرسول... الخ، قد ولد ذلك الاهتمام بسيرته ورواية أحاديثه ومن ثم نشطت حركة التدوين في موضوع السيرة ومعايري الرسول، بالطبع كان ذلك حافزاً كافياً لتداول هذه المؤلفات في حلقة الشيوخ، وانتشارها دون غيرها من المؤلفات التاريخية الأخرى، فقد استمدت أهميتها من أهمية الموضوع الذي تدور حوله.

تنامي الوعي التاريخي في بجاية القرن السابع هجري

من دون أي تردد، يمكننا الجزم بالدور البارز الذي لعبته المشيخة الأندلسية من طبقة المؤرخين، في تنشيط الوعي التاريخي بجاية على وجه الخصوص خلال القرن 7 هـ / 13 م، إذ مثلت نقطة استقطاب واسعة لهذه العناصر النشطة. وبالرجوع إلى الوراء وبالتحديد إلى بجاية الحمادية، تكتشف لنا الصورة الباهة التي صبغت الوعي التاريخي بالمنطقة، إذ لم تعرف تقاليد تاريخية واضحة بأسس وقواعد صلبة⁽⁴⁹⁾، وهو ما يفسر لنا إلى حد كبير قلة المهتمين بالدراسات التاريخية في المنطقة، يوازيه ذلك ندرة المؤلفات وإن وجدت فهي ضئيلة⁽⁵⁰⁾، على غرار الكتاب التاريخي الذي ألقه حماد بن إبراهيم بن أبي يوسف المخزومي، لصالح الأمير الحنادي العزيز بالله بن المنصور بن الناصر بن علناس (515-498 هـ / 1121-1104 م)، اطلع عليه ابن الأبار ونقل عنه في كتابه التكميلية⁽⁵¹⁾، ومن المحتمل أن يكون قد ثُرَّ عليه ابن الأبار في المدة التي أقامها في بجاية، ومن ثم استعان به في الترجمة للمؤرخ أحمد بن أبي العرب بن قيم القبرواني.

(49) من الدراسات التي سلطت الضوء على المسار العام للكتابة التاريخية المغربية المحلية خلال القرون المحرجة الأولى سلسلة المحاضرات التي ألقاها محمود إسماعيل على طيبة الدراسات العليا بمكنا، ونشرت تحت عنوان "الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي"، منشورات الزمن، الرباط، 2001. إضافة إلى سلسلة المقالات التي أغارها علاوة عمارة باللغتين العربية والفرنسية، وقد تمت الإشارة إلى مقالين منها في وقت سابق. إضافة إلى مقال آخر تحت عنوان "ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط"، مجلة التاريخ العربي، عدد 21، (2002)، ص 67-95. وأتبعه بدراسة ثانية حول شخصية الرقيق القمرواني مع التركيز على دوره في بلوغ الفكر التاريخي ببلاد المغرب وجاء تحت عنوان "الرقيق القمرواني وبلوحة الفكر التاريخي ببلاد المغرب"، مجلة التاريخ العربي، عدد 25، (2003)، ص 111-144.

(50) معرفة مزيداً من التفصيل. ينظر:

- علاوة عمارة، الكتابة التاريخية، ص 343-348.

- آسيا ساحلي، إنتاج وانتقال المعرفة التاريخية ببلاد المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة، رسالة ماجستير (غير منشورة)، إشراف علاوة عمارة، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2007-2008، ص 32-83.

(51) تحقيق عبد السلام الهاشمي، دط، دار الفكر، بيروت، 1995، 1/111.

لكن خلال القرن السابع هجري، بدأت اهتمامات بعض النخب العلمية المحلية تتوجه إلى الاهتمام أكثر بالكتابات التاريخية، واكتب ذلك ظهور مجموعة معتبرة من المؤلفات التاريخية المحلية، التي ركزت اهتمامها على تاريخ المنطقة. وعليه سوف نسلط الضوء على اثنين من نعرف مؤلفاً ثالثاً التاريخية:

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصنهاجي (ت 628 هـ / 1230 م)⁽⁵²⁾، ينحدر من سوق حمزة (البويرة حالياً)، له "تلخيص" على تاريخ الطبراني، كما ألف كتاب "النبيذ المحتاجة في أحجار صنهاجة بافريقيا وبجاية"⁽⁵³⁾، وهو يمثل العودة إلى تمجيد مضارى السلالة الصنهاجية التي ينتهي إليها، والكتابان المذكوران معدودان ضمن الكتب الضائعة، إضافة إلى برنامج شيوخه الصانع أيضاً، اطلع عليه الغربي وأشاد به مضمونه⁽⁵⁴⁾. وقد وصلنا من مؤلفاته تلك كتابه "أخبار ملوك بي عبيد وسيرهم"⁽⁵⁵⁾، الذي حاول فيه تدوين أخبار الخلفاء الفاطميين في بلاد المغرب، في محاولة منه إضفاء صبغة الشرعية على الخلافة الفاطمية التي سلمت زمام الحكم للسلالة الصنهاجية التي ينحدر منها.

ومن نهاية القرن السابع هجري تطل علينا الشخصية الثانية، التي تعتبر من أبرز الشخصيات المحلية القرية من دوليـبـ الـسلـطـةـ، نـعـنـ بـهـ "كـبـيرـ بـجـاـيـةـ وـصـاحـبـ شـوارـهـ" أبا العباس العبريني الذي ذهب ضحـية بطـانـةـ السـلـطـانـ⁽⁵⁶⁾. مـيـثـلـ كـتـابـهـ "عنـوانـ الدـرـاـيـةـ" اـجـاهـاـ تـارـيـخـاـ مـأـلـوفـاـ فيـ الغـربـ الإـسـلـامـيـ الوـسـطـيـ، يـمـكـنـ نـعـنـهـ بـكتـابـةـ تـارـيـخـةـ مـلـيـلـةـ بـيـوـغـرـافـيـةـ بـاـمـيـازـ، تـرـكـتـ عـلـىـ تـرـاجـمـ الشـخـصـيـاتـ الـبـجـائـيـةـ الـخـلـيـلـةـ وـالـوارـدـةـ إـلـيـهاـ خـالـلـ القرنـ 7ـ هـ /ـ 13ـ مـ، وـتـكـمـنـ أـهـمـيـةـ كـتـابـهـ هـذـاـ فـيـ اـعـتـمـادـهـ عـلـىـ الـأـحـكـامـ وـالـتـسـجـيلـاتـ الـقـضـائـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ بـحـوزـتـهـ باـعـتـهـ قـاضـيـ المـدـيـنـةـ⁽⁵⁷⁾.

على أن الوسط العلمي البجائي خلال القرن ٧ / ١٣ م، لم يقتصر فقط على احتضانه لشخصيتي ابن حماد والغربيني، بل عرف أيضاً شخصيات محلية أخرى محسوبة على فئة المهيمنين بالأخبار، وهو الأمر الذي تكشفه لنا مطالعة تراجم الغربيني في "عنوان الدرية" أين زودنا بثلاث شخصيات محلية نعتها بـ "التاريخي"، والجدول التالي يوضح ذلك:

(52) ينظر ترجمته: الغريب، مصدر سابق، ص. 192-194. ابن عبد الملك الماكثي، مصدر سابق، 8/225-323.

(53) ينسب صاحب التليل والكلمة، 324/8. عنوانا آخرًا لابن حاد "الدياجة في أخبار صنهاجة"، يؤكد على أنه غير كتاب "البنيد المحتاجة في أخبار صنهاجة". هنا العنوان الأخير نسبة إليه الغريق، مصدر سابق، ص 194.

⁵⁴ المصادر نفسه، 193.

(55) تحقيق، جلول أحمد البدوي، الجنائز ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.

(56) يعتد ابن خلدون من أبرز المؤرخين الذين قدموا معلومات دقيقة حول نكبة الغربني، وأسباب مقتله في محبسه بأمر من صاحب البلاط البخاري أبي البقاء خالد (709-699 هـ / 1309-1299 مـ)، وخصص لذلك عنواناً مستقلاً "الخبر عن سفارة القاضي الغربي ومقتله"، حول ذلك ينظر: ابن خلدون، مصدر سابق، 6/ 264.

(57) استعن الغربي بالسجلات القضائية التي استطاع الوصول إليها في بجاية، في الثثبت من تولي كل من الشيخ أبي محمد عبد الحق الأشبيلي (ت 582 هـ / 1186 م) والشيخ أبي عيسى ميمون (ت 584 هـ / 1188 م) منصب قضاء بجاية مدة قليلة. حوطا ينظر: الغربي، مصادر سابق، ص 73، 183.

الصفحة	شيوخه في بجاية	منصبه في بجاية		أصله	الصفة العلمية	اسم الشخصية
93	غير وارد	- انتصب للتدريس	قلعة بنى حماد	التاريخي ... حافظاً للتاريخ	أبو محمد عبد الله بن عبادة القلعي (ت 669 هـ / 1270 م)	
99-94	- أبو المطرف بن عميرة - ابن محز البليسي	- انتصب للتدريس	قلعة بنى حماد	المحصل التاريخي	أبو عبد الله محمد بن ميمون القلعي (ت 673 هـ / 1274 م)	
294	غير وارد	- قاضي بعض كور بجاية - طيباً مزاولاً ومعالجاً	تدلس	له علم بالتاريخ	أبو عبد الله محمد بن يحيى الدلسي	

من المجدول يمكن قراءة نقطتين أساسيتين:

- على الرغم من تأكيد الغربي على الصفات العلمية التي تمتلكها الشخصيات المشار إليها، والتي تعكس في جملتها اهتماماتهم التاريخية، إلا أنها لا نعرف لهم كتاباً في التاريخ، ما يزيد الأمر تعقيداً، أن مصدر الغربي انفرد بالترجمة لهذه الشخصيات على الأقل بالنسبة للمصادر التي بين أيدينا.
- أن الشخصيات الثلاث لا تنتمي إلى بجاية المدينة، بل إناث منها ينحدران من القلعة العاصمة الأولى للحامدين، يضاف إليهما ابن حماد الصنهاجي القلعي، وهو ما يشير إلى استمرارية القلعة وأحوازها في تقدم نماذج بارزة، لشخصيات محلية فاعلة في الوسط العلمي البحري، وإثبات مقدرتها على تولي مناصب مهمة. لكن رغم أهمية هذه التراجم التي عرضها علينا الغربي، إلا أنها لا تشكل لنا في عمومها مادة خبرية كافية، يمكن التعويل عليها في الوصول إلى حقيقة النشاط التاريخي لهذه الأخيرة، فمثلاً شخصية ابن ميمون القلعي وإن علماناً بجلوسه لحلقة شيخين من كبار الشيوخ الأندلسيين من ذوي الاهتمامات التاريخية، إلا أن الغربي لا يكشف لنا عن طبيعة المواد التي درسها عليهم. وعليه فإننا أمام هذا الشح في المعلومات، نجد أنفسنا مكتفين فقط بالتأكيد على تحلي هذه الشخصيات الخلية بالصفة العلمية الصرحية التي ثبتها الغربي بالقول "لتاريخي"، "له علم بالتاريخ".

الخاتمة:

لا يسعنا القول في ختام هذه الورقة، إلا التأكيد على الدور البارز الذي لعبته المدرسة التاريخية الأندلسية، ممثلة في أساتذتها الواردين على بجاية، في مقدمتهم الشيخ أبو عبد الله الكتاني ودوره في تفعيل النشاط التاريخي بالمعطقة، وذلك بتدريسه على طلبة حلقته مجموعة معتبرة من المؤلفات التاريخية، على الخصوص كتب السيرة النبوية وتراجم رجال الحديث، تماشيا مع روح ذلك العصر، أين سيطرت فيه العلوم الشرعية، توازى مع ذلك الانتشار الواسع لممؤلفات علوم القرآن، والفقه وأصوله، وعلوم الحديث، واللغة العربية.

من جهة أخرى، لفت الانتباه إلى أهمية كتب البرامج وفهارس الشيوخ، في تسليط الضوء على طبيعة المواد المدرسة داخل الحلقة، ما يتبع للباحثين معرفةخلفية الفكرية التي تستند عليها الأوساط العلمية في بجاية، والمتمثلة أساسا في الاعتماد على الإنتاج الفكري الأندلسي والمشري، في مقابل ذلك غياب شبه كلي للإنتاج المحلي المغربي. وهو ما يؤكد لنا طبعاً أسبقية المدرسة التاريخية المشرقية وبلغها مرحلة النضج، كما لم تكن المدرسة التاريخية الأندلسية بأقل من نظيرتها المشرقية، وبذلك حققت مراحل متقدمة عن شقيقتها المدرسة التاريخية المغربية، التي سوف تعرف تطوراً ملحوظاً على كافة المستويات مع بدايات القرن 8 هـ / 14 م، وتدشين حضورها بظهور مؤلفات ابن عذاري (ت بعد 712 هـ / 1312 م)، وابن مزروق (ت 781 هـ / 1379 م)، وابن خلدون (ت 808 هـ / 1405 م).